

موعظة غبطة البطريرك مار نصر الله صفير

التي ألقاها خلال القداس الإلهي الذي أقيم في كنيسة

الصرح البطريركي في بكرى الأحد ٢٠٠٠/١٠/١٥

تحت عنوان:

"كل احتفال طقسي هو" عمل المسيح - الكاهن

وجسده الذي هو الكنيسة". (المجمع الفاتيكاني الثاني)



نواصل الحديث عن القربان الأقدس. إنه ذبيحة المسيح، وفي الوقت عينه ذبيحة الكنيسة. ولهذا إن الكنيسة تلتزم هذه الذبيحة. وسنرى أن الكنيسة جعلت ذبيحة المسيح ذبيحتها، وأنها تعاون على تقديم هذه الذبيحة باستمرار بواسطة الكهنة، وأنه يستحيل تقديس القربان أي الخبز والخمر بدون سلطان الكهنوت الخاص. وهذا ما أكدّه المجمع الفاتيكاني الثاني بقوله: "كل احتفال طقسي هو" عمل المسيح-الكاهن وجسده الذي هو الكنيسة". وإنا نسأل الله، بشفاعته القديسة مريم العذراء، أن يمكننا من الإفادة من الذبائح التي تقدّم بشكل غير دموي على مذابح الكنائس عندنا.

ذبيحة المسيح، ذبيحة الكنيسة

ذبيحة القربان هي ذبيحة المسيح: المسيح الضحية وفي الوقت عينه الكاهن، على الأقل الكاهن الأساسي، المطلق الصلاحية، الذي يعمل بواسطة الخدام أي الكهنة، الذين يعملون باسمه. ولكن ذبيحة القربان هي في الوقت عينه ذبيحة الكنيسة. وهذا هو سبب بقائه، وبوصفها ذبيحة أسرارية- أي إنها سرّ من الأسرار السبعة- فهي ليست بموجودة إلا لخير الكنيسة وأبنائها. لماذا إذن تتجدّد تقدمة ذبيحة الصليب، إلا لتصبح ذبيحة الكنيسة؟ الذبيحة التي تمّت على الجلجلة لا تحتاج إلى أن تتكرّر. فهي ذبيحة وحيدة، وقُدّمت مرّة واحدة واستحققت للبشرية كل النعم الضرورية للخلاص. وإعادة هذه الذبيحة على مرّ الزمن لا معنى له، إلا إذا كانت هذه الإعادة تعني التزام الكنيسة هذه الذبيحة. وهذا يفترض أن الكنيسة بإمكانها أن تجعل ذبيحة المسيح ذبيحتها، وأن تلتزم مقتضيات هذه الذبيحة.

فذبيحة القربان إذن ليست إعادة بسيطة لتقدمة المسيح على الجلجلة، بل هي تعني تبني الكنيسة هذه التقدمة، وجعلها إياها تقدمتها الخاصة بها، وذلك لتتسع وتمتدّ وتنتشر. وتبني الكنيسة هذه التقدمة، وجعلها إياها تقدمتها إنما هو عمل موضوعي، بحيث إن تقدمة المخلص

أسراريا تصبح تقدمة الكنيسة، بواسطة الطقوس الذي رسمه يسوع المسيح في العشاء السري. وكلمات التقديس تحقق ذبيحة المسيح كذبيحة الكنيسة.

وجعل الكنيسة هذه الذبيحة ذبيحتها موضوعيا، بفعل الطقوس، يقضي بدعوة الكاهن والمؤمنين الذين يشتركون في القربان إلى الانضمام، من حيث استعداداتهم الشخصية، إلى تقدمة الذبيحة الفادية. والاحتفال بالقربان يحملهم على المشاركة في مشاعر المخلص وفي إرادة تقدمة ذاته.

معاونة الكنيسة في ذبيحة القربان

إن القاعدة التي أعلنها المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني عن الطقوس تنطبق على القربان، وهي: "أن المسيح، عندما يتعلّق الأمر بعمل كبير يمجد الله كل التمجيد ويقدّس الناس، يشترك دائما الكنيسة، عروسته المحبوبة التي تدعو الرب وتقدم بواسطته واجب العبادة لله الأب".^١ وهكذا إن كل احتفال طقسي إنما هو "عمل المسيح-الكاهن وجسده الذي هو الكنيسة".

إن معاونة الكنيسة في الذبيحة تعبّر عنه أولا خدمة الكاهن. فالكاهن هو الذي يقدم ما ديا التقدمة. وهذا الخادم، الذي هو في خدمة المسيح، يقول باسم المسيح فقط كلام التقديس. وهو بقوله: "هذا هو جسدي"، وهذه هي كأس دمي"، يحضر جسد المسيح ودمه. ولا يمكنه أن يلفظ هذه الكلمات إلا بقوة السلطان الذي قبله لدى السيامة الكهنوتية. وهذا السلطان أُعطيه بأمر الكنيسة. ولأنه يمارسه باسم الكنيسة، فهو يمارسه أيضا باسم المسيح.

إن تحقيق الذبيحة القربانية يقتضي له خدمة كهنوتية خاصة. لقد قام بعضهم بمحاولات ترمي إلى إعطاء جميع المسيحيين، باسم الكهنوت الشامل، سلطان الاحتفال بالقربان. لكن الرسالة التي صدرت سنة ١٩٤٧ وعنوانها "وسيط الله" شجبت هذه النزعة المتطرفة وذكّرت بموقف الكنيسة التقليدي في هذا المجال وهو: "أنه إذا كان المسيحيون يشاركون في ذبيحة القربان، فهذا لا يعني أنهم ينعمون بالسلطان الكهنوتي... وهناك من يعودون إلى ضلالات مرذولة سابقا، ويعلمون أن ما يسمّى كهنوتا في العهد الجديد ينطبق على كل الذين تطهّروا بغسل العماد المقدس، ويدّعون أن الأمر الذي وجّهه السيد المسيح في العشاء السري إلى تلاميذه بأن يصنعوا ما صنع، إنما هو موجه إلى كنيسة المؤمنين جمعاء... ولهذا فإنهم يعتقدون أن الشعب يمارس سلطانا كهنوتيا حقيقيا، وأن الكاهن يعمل فقط بتوكيل يأتيه من الجماعة".^٢

وتذكّر الرسالة في هذا الموضوع بأن المبدأ هو "أن الكاهن لا يمثّل الشعب إلا لأنه يقوم مقام شخص سيّدنا يسوع المسيح الذي هو، بوصفه رأس كل الأعضاء، يقدم ذاته من

١ - المجمع المقدس عد ٧

٢ - مجلة أعمال الكرسي الرسولي ٣٩ ، ١٩٤١ ، ٥٥٣ وما يلي

أجلهم". فهناك إذن سلطان لتقدمة الذبيحة القربانية باسم المسيح، وهو سلطان يختص بالكاهن دون سواه.

لا تقديس قربان دون كاهن

وفي المدة الأخيرة نشأت مشكلة عن ضرورة تدخل الكاهن في الاحتفال بالقربان. إن تناقص الدعوات في أماكن عديدة حرم رعايا كثيرة من الخدمة الكهنوتية. وتعددت اجتماعات يوم الأحد دون كاهن. وتقوم هذه الاجتماعات بالصلوات المشتركة، وبقراءة الكتاب المقدس، وبتوزيع المناولة. ولكنها لا تستطيع أن تؤمن المشاركة في الاحتفال بالسر القرباني، أي بالقداس، الذي هو أهم عمل في العبادة المسيحية. ذلك أن تقديس الخبز والخمر وتحويلهما جسد المسيح ودمه لا يمكنهما أن يتما حيث لا يوجد كاهن جاهز. ونفهم جيداً ما يعانيه مسيحيون مؤمنون بسرّ القربان من هذا الحرمان.

ولكن هذا الوضع من شأنه أن يوقظ ضمير الجماعات المسيحية على مسؤولياتها في ما خص نشوء الدعوات الكهنوتية وتنميتها. وهذه الجماعات معدة، وفق مخطط الله، لتطوير حياة مسيحية عميقة في العائلات والأفراد، بحيث يتمكن الشبان من الإصغاء إلى نداء الحياة الكهنوتية، وبحيث يجد هذا النداء أرضاً مواتية للجواب عليه بسخاء مستمر. وإن مأساة الجماعات المحرومة من القربان بسبب قلة الكهنة، من شأنها أن تحمل إلى تقدير أهمية حضور الكهنة ورسالتهم الذين لا بدّ منهم لتطوير كل الغنى الروحي الذي أتى به السيد المسيح إلى العالم، وبخاصة لأجل تكثير الاحتفالات القربانية، أو القداسات.

وبعد أن أدركنا قيمة الخدمة الكهنوتية، يجب التشديد على أهمية مشاركة جميع المؤمنين في الاحتفال القرباني، وذلك لأن الكنيسة جمعاء معنية به. وأساس هذه المشاركة الكهنوتية الشامل الممنوح لجميع المؤمنين، وهو كهنوت قوامه تكريس عميق يجعلهم أهلاً لكل تطوّر الحياة الأسرارية، وبنوع خاص، لالتزام حقيقي في تقدمة الذبيحة القربانية. "إن المؤمنين، بقوة الكهنوت الملوكي الذي هو كهنوتهم، يسهمون في تقدمة القربان أو القداس، على ما أعلن المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني.

أيها الأخوة والأبناء الأعزّاء،

إنّا نؤمن بأن السيد المسيح يقيم معنا في سرّ القربان، وهو يصغي إلى نداءاتنا ويشهد ما نشهده بالقرب منا من مأس وفواجع. وهو يسمح بوقوعها ليتعظ الناس بها ويجتنبوا ويلاتها، لو كانوا يحسنون القراءة. ولكنه قال: "لهذا أكلمهم بالأمثال لأنهم يبصرون ولا يبصرون، ويسمعون ولا يسمعون، ولا يفهمون" ٣.

ولكن ما يحدث بالقرب منا، وهو مريع ، ولا ينبئ بوضع حدّ لمأساة الشعب الفلسطيني الذي يجب إنصافه وتمكينه من إنشاء دولة له حق فيها . ولكن ذلك لا ينسينا قضايانا . وما أحرانا أن نردّد ما قاله قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، عن بلده بولونيا منذ عشرين سنة أمام مؤسسة الأونسكو، وقد عنى بقوله جميع شعوب أوربا الوسطى والشرقية. قال: "إني ابن أمة عاشت أكبر خبرات التاريخ، وحكم عليها جيرانها بالموت عدّة مرّات، ولكنها ثبتت وبقيت هي ذاتها. وحافظت على هويّتها، وحافظت، على الرغم من التقاسم والاحتلالات الأجنبية، على سيادتها الوطنية، ليس بالاعتماد على القوى المادية، بل بالاعتماد فقط على ثقافتها . وقد تبين، في ذلك الظرف، أن هذه الثقافة هي قوّة أكبر من جميع القوى الأخرى . الثقافة، أعني اللغة والتاريخ ، والفنّ ، والأدب ، دونما شك، ولكن أعمق من ذلك، جذور شعب ، وأصله ، ومشروعه الحضاري الذي تكوّن عبر القرون ، وفكرته عن الوطن والأمة والدفاع عنهما ، ولو لم يبق لهذه دولة تكون سنداً لها قانونياً ومؤسسياً . فقلب الإنسان ، وروحه ، وضميره يقوم مقام ذلك ، والكنيسة هي هنا لتساعده ليس فقط على الثبات ، بل على نقل كل ذلك إلى الأجيال الطالعة . ونضيف: وما كانت الكنيسة إلا حارسة للضمير الوطني الجماعي وضامنة له وللثقافة اللبنانية . وعلى الله الاتكال.

بكركي في ١٥-١٠-٢٠٠٠

